عبق القدس

تأملات في نصوص مسيحية وإسلامية

سعادة الدكتور غيث بن مبارك الكوراري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

جعلت عنوان هذه الكلمة: "**عبق القدس، تأملات في كتابات مسيحية وإسلامية**"، إذ أن للقدس عبقا خاصا ميزها ويميزها عن باقي مدائن الشام، وسحرا خفيا رافق صورتها في أذهان العالمين شرقا وغربا. وهذا العبق لعمري هو مما مكن القدس من تجاوز الفترات الحالكة التي توالت عليها في التاريخ، وهو نفسه ما جعلها عصية أبية على كل من أرادوا الانفراد بها والاستحواذ على ذاكرتها. لقد قاومت القدس كل عمليات مسخ الهوية وطمس المعالم، وهي في شموخ مازالت تقاوم، فما يكاد الغاصبون يدمرون حجرا من أحجارها حتى تنبجس من ذراته شواهد لا تحصى ليست تشهد إلا على ماضيها العربي وعلى ارتباطها بأهلها وتشبثها بذكراها مدينة للسلام.

وليس يخفى على أحد أن عبق القدس تأسس على دوائر الخير التي انتظمت في سلك النبوة من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وضوع في أفكار حية دافع عنها أهل الإيمان. كانت القدس عبر مسار طويل من التاريخ نشيد سلام تعلقت به أفئدة أتباع الرسالات، فدافع فريق منهم على فسيفسائها الخالدة، وأراق البعض الآخر الدماء الغزيرة

لامتلاكها، بينما آب البعض الآخر حين تيقن بضرورة التعايش وإمكان التسامح، وشذ فريق أعماه التعصب ليغلب منطق الاستحواذ والتدمير والتهويد.

لنتتبع عبق القدس الخالد من خلال نصوص معبرة مختارة؛ مسيحية وإسلامية، ومراجعتنا هذه هي في الحقيقة دعوة إلى التأمل. والنتيجة التي تستخلص منها، أن منطق القدس لا يمكن أن يتصور إلا في سياقها الطبيعي: مدينة للسلام، لم يبق منها حجر على حجر مرات ومرات، لكنها بعد كل دمار كانت تعود لتسلم نفسها لنداء السلام الذي لطالما رددته مآذن الأقصى ونواقيس الأديرة واهتزت له أشجار جبل الزيتون ونسائم كل ربى ووهاد أرض المحشر والمنشر.

قال المؤرخ القبطي المصري، جورجيوس ابن العميد أبو إلياس بن أبي المكارم بن أبي الطيب المعروف بالمكين المتوفى سنة 672ه موافق 1273م في كتابه: "**تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابيكية**" الذي اعتنى المستشرق الهولندي إربينيوس بنشر نصه العربي مرفوقا بترجمة لاتينية بليدن سنة 1625م، بعد أن أورد مقتطفا من نص كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل إلياء قال:

"فلما دخل المدينة جلس في وسط صحن كنيسة القيامة، فلما حان وقت الصلاة قال عمر رضي الله عنه أريد أصلي، قال البطريرك: يا أمير المؤمنين صل موضعك. قال: لا. وخرج خارج الكنيسة وصلى على باب الدرجة على باب الكنيسة وحده، ثم جلس وقال للبطريرك: إن صليت داخل الكنيسة كان المسلمون يأخذونها بعدي ويقولون: هنا صلى عمر. وكتب لهم خطا أن لا يصلي أحد المسلمين على الدرجة إلا واحدا واحدا، ولا يجمع فيها الصلاة ولا يؤذن عليها. ثم قال عمر رضي الله عنه للبطريق عن الصخرة التي كلم الله يعقوب عليها، فلما جاء عمر إليها وجد ترابا كثيرا عليها فأخذ عمر من التراب في ثوبه فتنظفت للوقت، فأمر عمر أن يبنى هنا المسجد في آخرها، ومضى إلى بيت لحم ودخل إلى كنيستها، وصلى عند الحينة

التي ولد فيها السيد المسيح وكتب سجلا أن لا يصلى في هذا الموضع من المسلمين إلا رجلا بعد رجل ولا يجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه. وعاد إلى المدينة"

(تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابيكية، ص 28ـ29)

وللمرء أن يتستنتج درجة هذا الأفق الواسع من التسامح بين الغالب والمغلوب، بين الخليفة ورعيته من أهل الذمة، لكم أن تقفوا على تلك الحدود من الإيمان بحق الآخر في الاختلاف الفكري وحقه في ممارسة عقيدته بحرية، لقد بدا لبيت المقدس في هذا النص عبق صانه الخليفة عمر رضي الله عنه وعبر عنه البطريرك سيفرونيوس. وكلا الرجلين صدر عن أساس من الأخلاق راعى للآخر مشروعية الوجود وإن مع التسليم بضرورة الاختلاف. وقد حرص المؤرخ القبطي جورجيوس ابن العميد أن ينقل ذلك بأمانة مستلهما من رواية الطبري. وتصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤسس لحد من التعايش وصون حقوق التدين واحترام أماكن العبادة، كما أن تصرفه لم يكن حدثا منفردا إذ ذكر المؤرخون أنه قام بنفس الأمر حين زار بيت لحم.

والجدير بالذكر أن نفس الخبر مع اختلاف طفيف ورد عند الطبيب المؤرخ النصراني بطريرك الإسكندرية أوتيخيوس سعيد بن البطريق المتوفى سنة 329ه موافق 940م في كتابه "نظم الجوهر" أو (التاريخ المجموع) *Alexandrini Anali* ، المجلد الثاني ص:285ـ 290، طبعة 1658م. يقول:

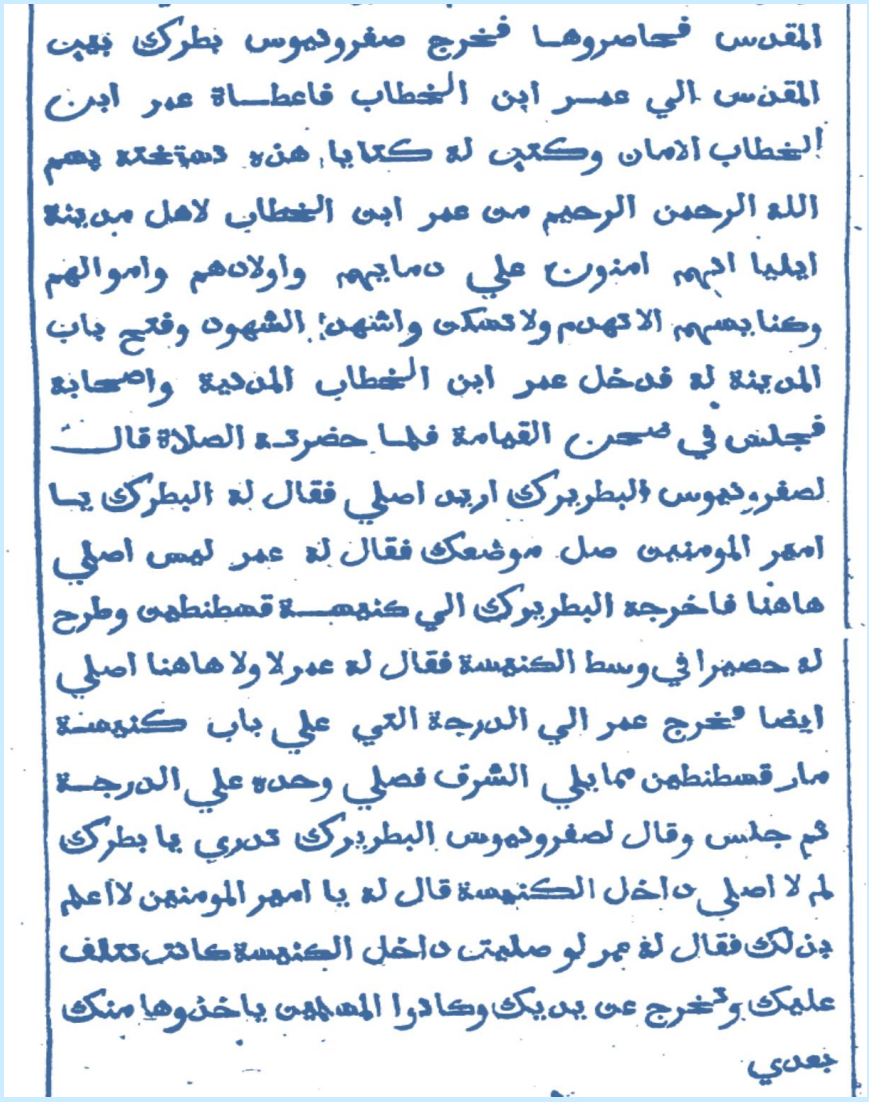
المقدس فحاصروها فخرج صفرونيوس بطرك بيت
المقدس الي عمر ابن الخطاب فاعطاه عمر ابن
الخطاب الامان وكتب له كتابا هذه نسختة بسم
الله الرحمن الرحيم من عمر ابن الخطاب لاهل مدينة
ايليا انهم امنون علي دمايهم واولادهم واموالهم
وكنايسهم لا تهدم ولا تسكن واشهد الشهود وفتح باب
المدينة له فدخل عمر ابن الخطاب المدينة واصحابه
فجلس في صحن القيامة فلما حضرت الصلاة قال
لصفرونيوس البطريرك اريد اصلي فقال له البطرك يا
امير المومنين صل موضعك فقال له عمر ليس اصلي
هاهنا فاخرجه البطريرك الي كنيسة قسطنطين وطرح
له حصيرا في وسط الكنيسة فقال له عمر لا ولا هاهنا اصلي
ايضا فخرج عمر الي الدرجة التي علي باب كنيسة
مار قسطنطين مما يلي الشرق فصلي وحده علي الدرجة
ثم جلس وقال لصفرونيوس البطريرك تدري يا بطرك
لم لا اصلي داخل الكنيسة قال له يا امير المومنين لا اعلم
بذلك فقال له عمر لو صليت داخل الكنيسة كادت تتلف
عليك وتخرج عن يديك وكادوا المسلمين ياخذوها منك
بعدي

ورواية ابن البطريق وابن العميد تدلان على الأثر الطيب الذي أحدثه خبر عهد الأمان الذي كتبه الخليفة عمر لأهل إيلياء (بيت المقدس) في نصارى الشرق عامة، والصدى الطيب الذي جعل رجلا وجيها مثل البطريرك سفرونيوس يتقن بحسن تصرف أمير المؤمنين وسمو أخلاقه، وهو ما أسس لنوع من"المبرة" المنصوص عليها في قوله تعالى: " **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**" (سورة الممتحنة الآية 8). وسوف تستمر صورة تلك المبرة، وذلك الإقساط بين أهل الشرق مسلمين ونصارى، حتى إذا تعرض عبق القدس إلى التهديد كان في الجيش المحرر أناس رعوا التآلف وصانوا التعايش من أمثال صلاح الدين والقائد النصراني العوام.

يقول ستيفن رنسيمان في الجزء الثاني من تاريخ الحروب الصليبية[1]

"الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه؛ إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين... وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز. ولما أقبل نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أن يكون مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته, والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى"

لم يكن موقف صلاح الدين إلا ناتجا عن العبق الأصيل للقدس، المؤسس على السلام وهو ما جعل الكتاب المسيحيين يشيدون بسمو أخلاقه وتقواه، ويعترفون أنه أحدث فورانا في التاريخ[2]

ولنا أن نشير كذلك إلى أن عدل صلاح الدين الأيوبي وجه العلاقة بين المسلمين والمسيحيين واليهود قرونا بعده، نقرأ في الوثيقة رقم 335 من وثائق الحرم الشريف، أن أحد اليهود يسمى إبراهيم الأمني هلك بالقدس الشريف، وأن **متولي البلد حضر إلى بيته وختم عليهم فحضر اليهود يتشفعون به فبعث معهم قاصدا إلى الوالي المذكور أن يلطف بقضيتهم، فقال الوالي: أنا مأمور أن أختم عليهم، وسأل اليهود هل مات عن وصية أم لا. فذكروا أنه**

---

[1] ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، ص753، طبعة دار الثقافة بيروت لبنان

[2] ـ أنظر مثلا بيير أوبيه Pierre Aubé في كتابه "صليبي ضد صلاح الدين، رينو دي شاتيون" *Un croisé contre Saladin, Renaud de Chatillon*، صدر عن دار فايارد 2007

مات عن وصية شرعية. وسأل حاكم القدس الشريف إثبات الوصية فتعذر ذلك في الوقت لعدم حضور المدعي الوارث من السجن ليدعي بذلك، وطلب مرسومين كريمين إحداهما إلى القاضي الشرعي بالقدس الشريف بإثبات وصيتهم بطريقه الشرعي والثاني إلى نائب القدس ليحرر أمرهم وينظر في حالهم، وإن كان أحد ظلمهم أو أخذ منهم شيئا فيخلصه منه ..[3]

إن هذه الوثيقة تعكس إلى حد بعيد ما أشرنا إليه أعلاه من أن ولاة الأمر في بيت المقدس ما بعد الناصر صلاح الدين حرصوا أن يشمل عدلهم المسلم واليهودي والمسلم من دون تفريق إيمانا منهم بطبيعة القدس المتعددة.

والقدس ، **مدينة عالمة أيضا**، استهوت مكانتها العلمية العديد من الأعلام، ولما كانت مدينة متعددة، فقد هوت إليها أفئدة رجال من مختلف المذاهب والطرائق والملل والنحل والفنون. واخترت من بين هؤلاء جميعا أنموذجا شاهدا على سبيل المثال. يتعلق الأمر هنا بأبي بكر بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي الذي زار القدس عام 486ه موافق 1093م ومكث بها ثلاثة أعوام يتتلمذ على علمائها. قال ابن العربي رحمه الله تعالى في نص من رحلته المفقودة الموسومة بـ"ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" ورد ضمن كتابه "قانون التأويل"[4]

"فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة، فاستنرت به أزد من ثلاثة أعوام، وحين صليت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي له، عمدت إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم

---

[3] ـ انظر الوثيقة في ص:255ـ 257 من "طائفة المغاربة في القدس الشريف 492 ـــ922ه موافق 1099ـ 1516م"، للدكتور عبد الرحمن محمد حامد المغربي، وهذا العمل في الأصل أطروحة قدمت بجامعة عين شمس، كلية البنات، قسم التاريخ بإشراف د. سيدة إسماعيل كاشف، والدكتور محمود عطا الله بتاريخ 31ـ10ـ 2000م

[4] ـ تحقيق محمد السليماني، ص:433ـ435، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، جدة، 1406 ـ1986

القاضي الرشيد يحي (القاضي يحي بن المفرج أبو الحسن اللخمي المقدسي) **الإمام الزاهد نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي** (نصر بن إبراهيم النابلسي توفي عام 490ه) **وهم يتناظرون على عادتهم، فكانت أول كلمة سمعتها من شيخ من علمائهم يقال له مجلي** (مجلي بن جميع المخزومي صاحب كتاب الذخائر المتوفى عام 550هجرية): **"بقعة لو وقع القتل لاستوفي القصاص بها، وكذلك إذا وقع في غيرها، أصله الحل".**

فلم أفهم من كلامه حرفا، ولا تحققت منه نكرا ولا عرفا، وأقمت إلى أن انتهى المجلس، فكررت راجعا إلى منزلي وقد تأوبني حرصي القديم... فقلت لأبي رحمة الله عليه:"إن كانت لك نية في الحج، فامض لعزمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستورا للعلم وسلما إلى مراقيها، فساعدني حين رأى جدي، وكانت صحبته لي من أعظم أسباب جدي، ونظرنا الإقامة بها، وخزلنا أنفسنا عن صحبة كنا نظمنا بهم في المشي إلى الحجاز، إذ كانوا في غاية الانحفاز"

إنه **العبق العلمي لبيت المقدس** ذاك الذي استهوى ابن العربي وأجبره على المكوث فيها تلك المدة المشار إليها في النص. وهو يذكر فيما تلا ذلك من الصفحات أسماء اجتمعت هناك من مثل: أبي الحسن يحي بن المفرج اللخمي المقدسي، وأبي بكر محمد بن الوليد بن أيوب الفهري الأندلسي الطرطوشي، وأبا الفضل عطاء المقدسي شيخ الشافعية، وأبا علي الصاغاني وأبا سعيد الزنجاني من علماء خراسان، وأبا منصور ساتكين التركي (توفي بالقدس عام 467هجرية) وغيرهم. وفي ذلك الفضاء المتعدد كانت تجري مناظرات بين مختلف المشارب الفكرية، يقول ابن العربي (ص:437) :" **وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود، وكان لليهود بها حبر يقال له التستري، لقنا فيهم، ذكيا بطريقهم، وخاصمنا النصارى بها (أي ببيت المقدس) وكانت البلاد لهم يأكرون ضياعها ويلتزمون أديارهم ويعمرون كنائسها"**، ويذكر إنه حضر في يوم من الأيام مجلسا عظيما فيه الطوائف..(ص437)، مما يقوم دليلا

على أن العبق العلمي للقدس عبق مشترك بين كل مكوناتها الفكرية والعقدية، وهو نفسه العبق الذي سيتردد في كتب الرحالين المسلمين الذين زاروا القدس أمثال: محمد بن رشيد الفهري السبتي (توفي 721ه) مؤلف **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة و طيبة**[5]، والعبدري والقاسم بن يوسف التجيبي السبتي (توفي 730هجرية) صاحب **مستفاد الرحلة والاغتراب**[6] ومحمد بن أحمد بن مرزوق الذي ضمن زيارته للقدس في كتابه **عجالة المستوفز في ذكر من استجازني من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز**، وأبو البقاء علم الدين خالد بن عيسى البلوي الأندلسي (توفي حوالي765هجرية) صاحب **رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**[7] وابن بطوطة، وابن خلدون صاحب **كتاب العبر**, والسفير محمد بن عثمان المكناسي صاحب **رحلة المعلى والرقيب**[8] وغيرهم كثير.

ونفس العبق العلمي للقدس أبرزه من كتبوا عن فضائلها مثل: محمد بن أبي بكر التلمساني (من علماء القرن الرابع الهجري) صاحب **وصف مكة شرفها الله وعظمها ووصف المدينة الطيبة كرمها الله ووصف بيت المقدس المبارك وما حوله** (نشرت بمجلة العرب، المجلد الثامن ، ج5،6 (11ـ12 1393ه) ص: 324ـ357 ، حمد الجاسر)، ومحمد بن أحمد الواسطي مؤلف **فضائل البيت المقدس** (حققه إسحاق حسون بالجامعة العبرية بالقدس سنة 1979)، ومحمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي صاحب **كتاب فضائل بيت المقدس** (حققه محمد مطيع الحافظ، دار الفكر دمشق 1989)، وأبي إسحاق إبراهيم بن يحي المكناسي (من علماء القرن السابع الهجري) مؤلف كتاب **فضائل بيت المقدس وفضائل الشام** وغيرهم.

---

[5] ـ حققها الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة و نشرتها دار الغرب الاسلامي

[6] ـو حققها محمد بن حسن بن عقيل الشريف، دار الأندلس، 1421ه

[7] ـ قدم لها وحققها العلامة الحسن السايح، طبعت تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة

[8] ـ نشر الدكتور عبد الهادي التازي القسم المتعلق بالقدس والخليل ضمن كتابه: القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجا، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ الإيسسكو 1418ه ـ 1997

لقد كان شد الرحال إلى بيت المقدس مصدر سعادة للمسلمين للرباط والمجاورة وأخذ العلم وبركة الأقصى والامتثال لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فعن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت :"**يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال أرض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه قالت أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه قال فليهد إليه زيتا يسرج فيه فإن من أهدى له كان كمن صلى فيه**" (مسند أحمد/ حديث 26343).

وكانت القدس كذلك مصدر سعادة للنصارى، وقد حرصوا على زيارتها واستذكار زمن السيد المسيح، كما راموا الوقوف على آثار الأقدمين. وكانت تلك السعادة تصل ذروتها حين كان ركب حجاجهم يشرف على جبل الزيتون، فيردد أعضاؤه نشيد " مباركة انت يا أورشليم" *Urba beata Hierusalem*.

يقول الرحالة النصراني البيروفي الفريلي رفائيل سانس:" يشتاق كل رحالة إلى نهاية رحلته، لكن لا أحد يحس بهذا الإحساس الحي الذي ينتاب زائر القدس، فلا الإسكندر سيكون قلقا من رؤية بابل، ولا القيصر يقلق حين يرى روما، ولا هرنان كورتيس حين يرى ميكسيكو، مثلما يقلق هذا الحاج المسكين عند رؤيته مدينة السلام المتحولة. هكذا فإن الزائر يكثر من الأسئلة إلى أن يقول مرشد القافلة:"أنظروا ها هي ذي القدس *Ecce Gerusaleme*، فيصيح الركب: "أنظروا ها هي القدس"

إنه عبق القدس مبعث تلك السعادة التي ظل الرحالون النصارى ينشدونها في مزاراتهم المقدسة في وادي يهوشفاط وكنيسة القيامة وجبل الزيتون وحديقة جشتماني، وهو عبق

القدس الذي تردد في أعمال من كتب عن القدس وفضائها من المسلمين، وقد تساءل عنها كاتب مثل رفائيل كورتوازي حين كتب يقول:

" منذ قرون عديدة والناس يأتون إلى هذه المدينة سعيا لتحقيق السعادة. المسيرة مازالت مستمرة، يهود ومسيحيون ومسلمون، أرثودوكس وبدعيون، متوازنون وغير متوازنين، مبتدئون وقدامى، كلهم يأتون إلى القدس. عن ماذا يبحثون بين الحجارة؟ ماذا يوجد في متاهة الشوارع المعقدة؟، ماذا يوجد على الأرصفة التي استهلكتها الآلاف من النعال والأقدام الحافية؟ استهلكتها ملايين خطى الحجاج الأتقياء" [9]

ونفس السعادة، مبعث عبق القدس رددت صداها المآذن ونواقيس الكنائس تباعا لحظة إعدام أبطال انتفاضة البراق المباركة: محمد خليل جمجوم وعطا أحمد الزير وفؤاد حسن حجازي يوم الثالث والعشرين من شهر غشت 1929م، وشاء الله تعالى أن تستمر مع الانتفاضتين الأولى والثانية وإلى أن يتحقق النصر بحول الله تعالى.

[9] -*Jerusalem Stones, Rafael Courtoisie, in La Fraternidad de la Palabra, Antologia ; Napoléon Baccino Ponce de Léon, Ediciones Trilce*; 2005, *P*:40-4)